الفصل السادس

الرسائل 7-8

أختي الحبيبة رجاء،

هنا على صخرة وأمواج البحر تهدهد أحلامي انتحيت لأناجيك.. لقد جئنا الى الشاطئ منذ الفجر وسبح إخوتك.. كلهم أصبحوا ماهرين في السباحة حتى هشام، ثم فطرنا وغمرت أنا ساقي في شبه خليج صغير يندفع اليه الماء وأخذت أكتـب اليك..

ان ما عندي لك لأكثر من موجات المحيط، وما عندي لك لأقل من أن يملأ وجه هذه الرسالة.. أتناقضا ما أقول؟ كلا هناك مشاعر، أشـياء غامـضة تحـوم حولي تأتي مشوهة لو اختصرتها لك، أما الحوادث الملموسة فهي عادية رتيبة لا حياة فيها ولا جمال..

تسأليننى ألم يحن الوقت لأفكر بالزواج، ايه يا رجاء انك تلمـسين موضـعا حساسا من نفسي كأنما لامسته أشواك الصبار التي تملأ البساتين خلفي، ولكني ان أبرقع مشاعري عنك..

ان جراحي تزرف كلما ظننتها التأمت.. وبالرغم أنني أعلم عبث الألم الاّ أن مقلتي لا تزال عبرى وقلبي يتنهد.. أي حلم مشؤوم أرعب النوم من عيوني ومـن عيون شعب بأكمله! لكأنما إنسانة أخرى تلك التي كانت هناك تضحك في عينيهـا آمال الصبا الذهبية في بيتنا النائم على مـوج اخـضرار مـن شـجر المـشمش والأجاص.. من ياترى يجلس اليوم تحت شجرة الزيتـون المـضيئة بالكهـارب الصغيرة في حديقتنا، ويجمع قرن الغزال من على ضفاف ساقيتنا؟ ومن يعـزف على عودي وكمنجتي ويتكئ على الوسادات التي طرزتها بيـدي، وينـام علـى الحشايا التي هيأتها لعرسي؟ يا رجاء كيف تصدر كمنجة محطمة نغما شجيا بعـد اليوم؟ كلنا تلك الكمنجة المحطمة وقد ضاعت أوطاننا!..

لست أدري اذا كان بوسع قلبي وقد فقد الإستقرار أن يلتهب من جديد وتعود اليه أفراح الشباب.. أتمنى!.. ان صلاتي الوحيدة هي أن تهدي الحياة قلبـي الـى

حب كبير تغرق فيه أحزاني.. ولكنني لم أجد الرجل الذي أركن اليـه وأحـب أن أستريح قربه..

ما أريد من الرجال من أقص معه ثمار نفسي وأعرافها كي أبدو متناسقة مع ما أوتي من مواهب ضئيلة، بل أريد من تتحرر روحي في نموها المتسارع معه، ومهما فعلت لا تدرك أعاليه.. ولا أظن ممن تعرفت عليهم أو تقـدموا الـي فـي عزلتي المتوارية عن العيون مثل هذا الرجل..

وفيم العجالة؟ انني لست بغير هدف حتى أقذف بنفـسي عنـد أول فرصـة للزواج.. ان صحتك يا حبيبتي سعادة لي تذوي أمامها كل ما تمنيني به الدنيا.. لقد جعلت مني أما صغيرة وأنا فخورة بأمومتي..

وما الغرض من الزواج ان لم يكن وسيلة للتسامي والرقي؟ انه ليس بالنسبة الي مجرد رغبة أو استقرار، بل خلود.. أريد أن يكون استمرار وجودي خيرا من وجودي..

ان كل فتاة ذات فطنة لما توحي اليها الطبيعة بألسنة خرساء تفهم ما أنيط بها بصورة غير واعية.. ولكن الظروف تجعلها تتنكب السبيل السوي تحـت وطـأة عواطف عابرة أو حب استقرار أو خدعة من مزايا مكتسبة عن مزايـا أصـيلة، فتقف أمام أخطر ما في العمر من قرار قليلة الحيلة نافـذة الـصبر تخـبط فـي الظلام.. كثيرا ما فكرت أن ليس الزواج متعة خالصة للمرأة على الغالب.. فانهـا تلاقي فيه آلاما جسيمة ومتاعب جمة من حمل وولادة وتربية أطفال.. وليس هـو استقرار معيشة والاّ لبقيت كل قادرة على إعالة نفسها عازبة.. فما يدفعنا للزواج؟

انها لا شك ارادة الحياة، وان قبضتها فولاذية، ووسائلها مغويـة سـاحرة، تثيرفينا سورة الخلق لنهب الحياة أفلاذا من كبدنا.. نحن لا نشعر أنا اكتملنا حتـى نفعل هذا!..

ومع ذلك فانني أشعر بجسامة تلك التبعة التي تقرر مصير أطفال أنا مسؤولة عن سعادتهم.. لن أقدم على هذا الأمر حتى أكون على أتم عافية، وحتى أحب من كل قلبي!..

سلمى

* * *

حبيبتي سلمى،

سرت الآن نسمة برود لطفت حرارة الجو وأنا في الفرندة وقد أسندت رأسي الى صدر سهى، وهي تغني أغانيها البدوية بصوت منخفض..

الليل هادئ يشعر بالدعة والإسترخاء.. نظرت الى دمشق وهي تشع كالماسات.. وتذكرت الفيلم الذي حضرته برفقة الآنسة صفاء.. كم شعرت بالفرح عندما ابتعدت عن المصح وأخذت أستنشق هواء الحرية وفضلت السير على قدمي بدل الركوب في السيارة لأتأكد من عدم نسيانهما طريقة المشي.. وقصصت شعري غرة وكويت أطرافه، وما كنت أظن نفسي بهذا الجمال الفتان.. وقد اتفقنا أنا وصفاء أن أدعوها ماما اذا كنا لوحدنا، ولكنها لا تسمح لي بهذا اذا التقينا بالناس.. وكنت أضحك لأتفه الأسباب وقد غمرتني نشوة عجيبة.. وأظن أنه يسرك أن تعلمي بأن ثلاث سيدات منتقبات خطبنني.. وقد بدأت المحاورات والمداورات بينهن وبين صفاء التي استمتعت بالتمثيلية، ضمن السيارة التي نقلتنا في طريق العودة..

زارني الأب فاسيل فيلار وبرفقته فرقة كشفية.. ولقد قضينا ساعة حافلة بالذكريات.. وأخبرني أنه انتقل الى دمشق وأنه سيزورني كل أسبوع برفقة الدكتور فضل الذي انتقل الى أحد مستشفيات دمشق.. وبعد ذهابهم دخلت المخبر فرأيت الآنسة صفاء تنقل شعرا من مجلة في دفترها المليئ بالأشعار فخطفته منها على سبيل المزاح ورحت أقرأ.

ماذا أقول لـــــــــه يوما اذا جاء الى القصر
ماتت عليك أسى أجيبه
واذا رأيت الحزن منطبعا على وجهه الذاوي من القهر
كوني له أختا وعزيه
واذا أراد أن يعلم مـــا قلتـــه ساعة حشري المر
قولي له ابتسمت فتسليه
واذا أراد أن يمشـي الى القبر كي يبكي على القبر

رحماك ان الدمع يؤذيه

ورفعت رأسي فاذا به يصغي عند الباب.. وكانت في عينيه نظرة رقيقة فابتسمت، وناولت الدفتر الى صفاء، وغيبت يدي في جيبى، وأخرجت ورقة أعطانيها الأب فاسيل لأسلمه اياها.. فنظر فيها برهة وابتسم متهكّما:

- ظننتها شيئا مهما يُطّلع عليه.. ليس فيها شيء عن الكشاف.. انها تبشير.. كلها عن الله.. وسألت صفاء:

- وأنت ألا تؤمن بالله؟ فأجاب:

- انني أومن بالهي وبكل ما أنزل من آيات.. قلت:

- أتؤمن بسورة الكرسي؟ قال:

- بلى!

- وبالحجاب؟

- ولم لا، ان كان فيه آيات من القرآن!.. وابتسمت فقال:

- أيدهشك هذا؟ قلت:

- لا، أبدا ولكنني ذكرت يوما رفضت فيه أن آخذ الدواء فالتفتّ الى الآنسة بشرى وقلت لها "أكتبي لها حجابا".. كان هذا في بدء تعارفنا، ولقد غاظتني كلمتك كثيرا.. ابتسم وقال:

- لقد أردت أن أضرب عصفورين بحجر واحد.. فأنت خالفت أمري كطبيب.. فقلت لك "دعي الآنسة بشرى تكتب لك حجابا" لأن أهلها كلهم مشايخ.. وهي دائما تقول لي "أنا أكتب لك!" وكما قلت لك يوما أنا لا أحب أن أجمع بين الصداقة والعمل.. فعندما أكون في دورتي لا أفكر أنك رجاء الذكية وأن قليلين من هم مثلك في الأخلاق واتساع التفكير.. بل أفكر أنك بالنسبة لي مريضة وعلي أن أعاملك كالباقيات.. وأنت تلاحظين أنني في غير الدورة أناديك بياجوجو وكل أسماء التدليل، ولكني في الدورة لا أناديك الاّ بيا رجاء.. وعادت صفاء الى القول:

- كانت عندي فكرة مغايرة عنك.. وأجابها:

- انني متجدد، ولكنني مؤمن.. ان فكرة الإله تردع الإنسان عن الشر..

وحدثنا بقصة فولتير اذ كان في جمع من العلماء الملحدين الذين أخذوا ينفون وجود الإله فقام فولتير بينهم خطيبا وقال: "أيها السادة.. الإله موجود وكـل الدلائل تثبت ذلك، فأدهش الحاضرين بخطابه.. وحين انصرف الخدم قـال لهم: "اذا لم يعتقد هؤلاء الخدم بوجود الإله، فمن الرادع لهـم عـن ذبحـي الآن؟"

وكنت أعرف القصة من قبل، ولكن أسلوبه في تصويرها كان رائعـا وقـد ضحكنا كثيرا..

عدت الى سريري ورحت أستمع الى سمفونية بتهوفن الخامـسة، وأجـول بعيني من خلال النافذة أراقب أشعة الشمس الذهبية تتوج رؤوس الصنوبر قبل أن تختفي وراء الجبل الأجرد.. واذا بي أسمع وقع أقدامه فأستدير:

- أين يسرح خيالك يا رجاء؟
- في مكان سحري بعيد.. ما أروع الموسيقى الكلاسيكية! كل جانحة مـن جوانحي تفيض بلحن غريب.. بحنين الى وجود غامض هائل لا أعرف كنهه.. ترى السماء زاخرة بهذه الألحان التي نسمعها على الأرض؟
- لا أعلم! ما عندك اليوم يارجاء للنقاش؟
- دكتور، ما هي السعادة بالنسبة اليك؟
- أن يتاح لي أن أتخصص.. وأتفرغ للبحث في عمل خاص فـلا بـد أن أكتشف شيئا، وأبني بيتا وأتزوج من تفهمني.. وضحك ثم أردف:
- ولكن لا شيء من هذا سيتحقق..
- ان مطاليبك معقولة وليست عسيرة على التحقيق..
- ربما تحقق معظمها بعد عشرة أعوام، ولكني أكون حينذاك قـد فقـدت الشباب! أما المطلب الأخير فأنا أشك في تحقيقه.. فنادرا ما تفهم المـرأة الرجل..
- هذا ليس صحيحا.. يبدو لي أنك متحامل على المرأة.. وأجاب:
- لا، لست متحاملا.. ان من طبع المرأة الإستئثار.. انها تجعل من بيتهـا وحتى أولادها منطقة نفوذ لها ضد الزوج المسكين، ولا يعدو الرجل في

نظرها الاّ وسيلة لغاية، وربما نبذته ان قصر يوما في الكفاح في سبيلها وفي سبيل أولادها..

- ولكن لم تنظر الى المرأة من هذه الوجهة؟ أليـسوا أيـضا أولادهـا؟ ألا تكافح أيضا في سبيلهم؟
- لو تعمقنا قليلا لوجدناها السيد المتصرف، والزوج هو العبد المـسكين.. انها حالة عامة حتى بين كبار الرجال..
- ان الزواج نفسه هو دور تنازل المرء عن أنانيته ليبذل الجهد في سـبيل حيوات جدد.. والرجل والمرأة سواء في الكدح في هذا السبيل.. ولعلهـا في هذا العصر تحمل تبعة أجسم، وتجهد أكثر مما يجهد الرجل..
- هذه هي المصيبة الكبرى.. انقلاب الأوضاع.. ولعل يوما سيأتي لا يكون للرجل فيه من الأمر أكثر مما لليعاسيب في خلايـا النحـل.. فـالأولاد أولادها والحب لها والإعتماد عليها.. لا.. هذا كثير لايطاق! انها تتدخل في شؤون الرجال من صغيرة وكبيرة، والويل للرجل لو تدخّل في شؤون مطبخها أو بيتها.. تطبخ له طعاما لا يحبه و..
- لا يا دكتور انك تهول الأمر.. فالمرأة لا تكره تدخل الرجل في مطبخها ولكنها تكره فوضاه.. وأذكر أن مامن مرة حاول والدي مساعدة ماما في شيء الاّ أساء من حيث يريد الإحسان.. ان أصابع الرجل ابهامات فـي هذه الشؤون على حد تعبير المثل الإنجليزي!.. وضحك:
- أليست أصابع المرأة ابهامات في شؤون الرجل فلمـاذا نـصمت عـن هرجلتها؟ أم تريدين أن تقنعيني بأنها تحمل فـضائل المـرأة وفـضائل الرجل؟ أليس هذا منطق حب النفوذ المتغلغل فيكن؟..
- ان حب النفوذ طبيعة في البعض أكان رجلا أو امـرأة فـلا تعمـم يـا دكتور.. لنناقش على الطريقة العلمية!..
- حسنا وما رأيك في الغيرة؟ غيرة المرأة.. اذا جاء زوجها متأخرا عـن موعده نصف ساعة أقامت الدنيا وأقعدتها..

- ليست كل النساء غيورات الى هذا الحد.. ولا أحسب أن شيئا مما ذكرت يحدث عندما يبررالرجل سبب تغيبه.. وتثق الزوجة بصدقه..
- انك لا تعرفين يارجاء.. ستكبرين وتعلمين هذه الأشياء.. انني أعرف من النساء... ان عملي كطبيب يتيح لي أن أعرف من أسرار العائلات ما لا تعرفين.. المرأة تغار على زوجها وتقاضيه حتى لو كانت تمقته وتتمنى له الموت، وتعلم أنها تذيقه من سوء معاملتها مر العذاب فيما لو مال الى غيرها..
- ولكنني لا أجد رجلا يعامل مثل هذه المعاملة ويبقى على زوجته!
- انه يبقى يا رجاء ان كان له أولاد يعـز عليـه أن يفـارقهم.. انـك لا تعرفين.. كل داء له دواء الاّ الغيرة فليس لها دواء..

رجاء

* * *